مجلة الآداب، م٢٦، ع١، ص ص ١٢١-١٣٧، جامعة الملك سعود، الرياض (٢٠١٤م/١٤٣٥هـ)

قراءة في تواريخ رحلات السنوسي بين المغرب العربي والحجاز

فهد بن محمد السويكت

أستاذ مشارك، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية

(قدم للنشر في ١٤٣٤/٥/٤هـ وقبل للنشر في ١٤٣٤/٧/١٦هـ)

الكلمات المفتاحية: رحلات، السنوسي، المغرب العربي، الحجاز.

ملخص البحث: قام محمد بن علي السنوسي، مؤسس الحركة السنوسية، بأكثر من رحلة متنقلاً بين بلدان المغرب العربي والحجاز. وقد اختلف المؤرخون كثيراً في تحديد تواريخ دقيقة لهذه الرحلات. وقد حاولنا في هذا البحث أن نوفق بين الروايات التاريخية المختلفة لنصل إلى تواريخ تقريبية لرحلات السنوسي بين بلدان المغرب العربي والحجاز.

المقدمة

أدى ضعف الدولة العثمانية إلى تفكك أجزائها وتسلط الأعداء عليها، وطمع المستعمرون باقتطاع أجزاء من جسدها وخاصة في المغرب العربي الذي كانت سلطة العثمانيين عليه اسمية.

وأمام هذا الضعف العام وعجز الدولة العثمانية عن حماية أطرافها ودفع الضر عن رعاياها، فَقَدَ المفكرون والإصلاحيون أملهم في الدولة العثمانية. وشمر البعض منهم بالاهتمام بإصلاح أحوال العالم الإسلامي دون الإعلان أو حتى التفكير بالانسلاخ عن جسد الدولة العثمانية.

يأتي من بين أولئك المصلحين في المغرب العربي، الشيخ محمد بن علي السنوسي الجزائري المولد والمنشأ. والذي تنقل بين بلدان المغرب العربي وزار الحجاز أكثر من مرة. وبدأ دعوته الإصلاحية في أرض الحجاز وتنقل بين مكة والمدينة والطائف حتى استقر به المقام في أرض ليبيا التي احتضنت الدعوة السنوسية الإصلاحية، ومنها انتشر أتباع السنوسية في المغرب العربي ومصر والحجاز وبعض أجزاء من أفريقيا الوسطى.

كتب عن الحركة السنوسية كثير من المؤرخين، خاصة لما تحول مسارها الإصلاحي إلى نهج سياسي في عهد أبناء المؤسس. ورغم كثرة ما كتب عن تلك الحركة، إلا أن

الباحث يجد تبايناً كثيراً في تحديد تواريخ رحلات مؤسس هذه الحركة بين المغرب العربي والحجاز سواء ما كان منها خاصاً بالذهاب أو الإياب. مع الأخذ بعين الاعتبار إلى أن كتابات (الدجاني) تعد من أشمل ما كتب في الموضوع نظراً لإقامته الطويلة في ليبيا واتصاله ببعض أقارب السنوسي.

ومن خلال قراءات عديدة في هذا الموضوع وجدنا أنه بالإمكان التوفيق بين الروايات المختلفة لتحديد تواريخ تقريبية لرحلات محمد بن علي السنوسي بين بلدان المغرب العربي والحجاز. لذلك فهذه محاولة ليست للكتابة عن السنوسية كدعوة أو حركة إصلاحية أو عن جهود مؤسسها في تأسيسها، بقدر ما هي محاولة لتوضيح مدى الخلاف في تحديد تواريخ رحلات هذا المؤسس بين المغرب العربي والحجاز. وبالتالي محاولة التوصل إلى تحري الدقة في ذلك.

نشأة محمد بن علي السنوسي

مولده: اختلف كثير من المؤرخين في تحديد عام ولادته. فمن قائل أنها كانت في يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول: ١٢٠٢/٣/١٢هـ الموافق ١٧٨٧/١٢/٢٢م. (الأشهب، ١٩٤٧: ١٣٤) (شكري، ٢٠٠م: ٣١)؛ (زيادة، برقة، ١٩٥٠: ٥٦). (وفي كتابه الآخر، ليبيا في العصور الحديثة، يجعل اليوم في التاريخ الميلادي هو٢٣ ديسمبر، ص٤١).

ومن قائل إنها كانت عام ١٢٠٦هـ/ ١٧٩١م، وآخر١٢٠٧هـ/ ١٧٩٢م، وثالث ١٢١١هـ/ ١٧٩٦م، ورابع١٢١٨هـ/ ١٨٠٣م، وخامس ١٢٢١هـ/ ١٨٠٦م، (بعيو، ١٩٥٣: ١٩). وهكذا. في حين يجعله (لوثروب ستودارد Lothrop Stoddard، ١: ١٩٧١/٢٩٥) حوالي سنة ١٢١٥هـ/ ١٨٠٠م.

ويلاحظ من خلال هذه التضارب في تحديد سنة ولادته أن هناك شبه إجماع على أنها كانت فيما بين نهاية القرن ١٨م وبداية القرن ١٩م.

أما مكان ولادته فليس هناك اختلاف حولها، فهو مولود في ضاحية من ضواحي مدينة مستغانم الواقعة في غرب الجزائر، تدعى الواسطة حيث كانت تقطن أسرته (الدجاني، ١٩٦٧: ٣٤). في حين يذهب البعض أكثر في تحديد المكان بضاحية ميثا من الواسطة في مستغانم (الصلابي، ٢٠٠٦: ٢١).

اشتهرت أسرته بعراقة النسب، فهي تنتسب إلى علي بن أبي طالب عن طريق الأدارسة الحسينيين . (الدجاني، ١٩٦٧: ٣٥)، بينما يذهب (زيادة، ١٩٦٦: ٦٥) إلى أن أسرته تنتسب إلى الحسن بن علي وفاطمة الزهراء.

اشتهر السنوسي بألقاب كثيرة فهو يعرف بالسنوسي الكبير (حسنين، ٢٠٠٤: ٤٨).ويلقب بالسنوسي مضافاً إليه الخطابي الإدريسي الحسني في بعض الأحيان (الدجاني، ١٩٦٧: ٣٦). أما تسمية الأسرة بالسنوسية فترجع إلى جده الرابع السيد السنوسي الذي كان من كبار علماء المسلمين (زيادة، ليبيا، ١٩٦٦: ٦٥). وقد سمي جده بالسنوسي؛ لأنه نزل على قبيلة يقال لها بنو سنوس من قبائل تلمسان. وحينما نزل بتلك القبيلة نسب إليها وتسمى بها؛ فصار من بعده يسمون أولادهم بهذا الاسم تبركاً به. وقيل بأن تلك القبيلة تنسب إلى جبل هناك يسمى اسنوس. أما لقب الخطابي فقد جاءه من جده خطاب بن علي، حيث كانت الأسرة تعرف بمستغانم بآل خطاب. وجاء لقب الإدريسي من الأدارسة الذين ينتسب إليهم (زيادة، ليبيا، ١٩٦٦: ٦٥).

نشأ محمد بن علي السنوسي في بيت علم ودين وفضل. فكان والده وجده وأعمامه وأبناء أعمامه، وكثير من نساء ذلك البيت مثل جدة السنوسي لأبيه السيدة الزهراء وعمته السيدة فاطمة كانوا جميعاً علماء. (شكري، ٢٠٠٥ : ٣١).

كان والده علي يجمع إلى جانب العلم والصلاح والتقوى الفروسية والرماية إلى درجة الإتقان غير أنه لم يلبث وأن توفي عندما كان عمر ابنه محمد سنتين. فتولت عمته فاطمة تربيته وتنشأته تنشأة صالحة واعتنت بتعليمه وتثقيفه وركزت في تعليمه العقائد والتوحيد بعد أن أتم حفظ القرآن برواياته السبع وبقي في حضانتها حتى بلغ تقريباً سن العاشرة، إذ توفيت بدورها عام١٢١٢هـ/ ١٧٩٧م، ولذلك فهي تعد أستاذه الأول.(الدجاني، ١٩٦٧ : ٣٨، ٣٩)؛ (الأشهب، : ١٣٤).

كانت عمته فاطمة من فضليات أهل زمانها متبحرة في العلوم منقطعة للتدريس والوعظ يحضر دروسها ومواعظها الرجال. (شكري، ٢٠٠٥ : ٣٢).

كفله بعد وفاة عمته ابن عم له يسمى الشارف. وكان صاحب علم فتابع العناية به. واستمر السنوسي يجمع العلوم فأتقن القرآن الكريم والفقه والحديث والتصوف على يدي ابن عمه ثم شرع بالأخذ عن علماء آخرين في بلده مستغانم. ثم توفي ابن عمه الشارف حوالي عام١٢٢٠هـ/١٨٠٥م، عندما كان عمر السنوسي قرابة الثامنة عشرة (الدجاني، ١٩٦٧ : ٣٩).

عرف السنوسي منذ حداثة سنه بشغفه للعلم وحرصه على الأخذ بأسبابه سواءً وجده في بلده مستغانم أو حتى خارجها. وكان من أشهر مشايخه في مستغانم السيد محمد السنوسي الذي قرأ عليه القرآن الكريم وأتقنه وأخذ عنه العربية والفقه والحديث والتصوف. ومنهم العالم الجليل محمد بن علي في بلدة مستغانم والشيخ محي الدين بن شهلة والشيخ عبد الحليم والشيخ محمد بن عبد القادر بن زوينه والسيد عبد القادر بن عمور وأشهرهم الشيخ محمد بن الكندوز (القندوز) (شكري، ٢٠٠٥ : ٣٢).

كان السنوسي إلى جانب انشغاله بالعلم، كثير التفكر في أحوال الإسلام والمسلمين، يميل إلى التقشف. وكان على يقين من أن الدين الإسلامي مفتقر إلى الرجوع إلى تلك الصورة التي كان عليها مجتمع القرون الأولى. لذلك كان في هذه السن المبكرة شديد الشعور بضرورة العمل من أجل إحياء الملة الإسلامية وتوحيد الصفوف في العالم الإسلامي من أجل النهوض بالدين الحنيف نهضة صحيحة قوية (شكري، ٢٠٠٥ : ٣٣).

لقد اجتمعت عدة عوامل أثرت في شخصيته في تلك المرحلة المبكرة:

أولها: سوء الأوضاع في الجزائر حينذاك حيث تأثر السنوسي بما يراه من ظلم ولاة الأتراك والثورات التي تقوم ضدهم وما يخطط له المستعمرون من أطماع في بلاده. كما كان لمشايخه دور كبير في إذكاء نار الكراهية للأتراك خاصة بعد مقتل شيخه ابن القندوز على يد الوالي التركي حسن بك عندما وجد فيه خطراً عليه.

ثانيها: ولادته في بيت شريف مشهور بالعراقة والأصالة، خاصة وقد كان ميلاده موافقاً لتاريخ المولد النبوي وأسماه أهله على اسم النبي ومن المتوقع أنه فكر بكونه حفيداً للرسول ومن سلالة الأدارسة.

ثالثها: نشأته في بيت علم وبيئة علمية حببت إليه العلم، كما أن التقاليد التي ورثتها أسرته ساعدت في صقل

شخصيته التي جمعت بين العلم والفروسية إلى جانب تمتعه بقدر كبير من الذكاء برز معه في سن مبكرة حتى لفت أنظار قومه إليه. (الدجاني، ١٩٦٧: ٤١- ٤٣).

أقبل السنوسي على التعمق في العلوم الشرعية في بلاده، لكنه شعر بأنه لا يزال لم يروِ ظمأه وأنه بحاجة إلى المزيد من طلب العلم حتى ولو كان خارج بلاده. وهذا ما دعاه إلى الرحلة إلى فاس للالتحاق بجامعتها القرويين المشهورة.

رحلته إلى فاس

لم يكتف السنوسي بما حصل عليه من العلم في بلاده، فهو شغوف بتحصيل العلوم مهما بعدت مضانها. كما أنه قد تنبه جيداً وهو في سن مبكرة إلى ما كان يعاني منه العالم الإسلامي من ضعف وتخاذل، خاصة عندما رأى تهافت الخطط الاستعمارية على بلاد المسلمين وذهاب بعضها من أيديهم. وقد عزى السنوسي أسباب تدهور العالم الإسلامي إلى خمول العلماء والمشايخ وانصرافهم إلى الراحة والدعة وابتعادهم عن إجهاد الجسد والعقل في رفع ألوية السنة والشريعة عالية. وقد قاده البحث عن علة تدهور الإسلام إلى الوصول للأهداف التي عمل السنوسي في تحقيقها من حينه، ثم ضمنها دعوته إلى الإصلاح واليقظة الإسلامية لنصرة الدين وإنعاش الإسلام. (شكري، ٢٠٠٥: ٣٤).

كانت فاس بجامعتها (القرويين) هي أقرب الحواضر العلمية إليه باعتبارها محط رحال العلماء وطلبة العلم، فقصدها ومكث بها عدة سنوات.

وقد اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ معين لمغادرته من بلاده إلى فاس. فالبعض يجعل مغادرته تلك في سنة ١٢٣٧هـ/ ١٨٢٢م (شكري، ٢٠٠٥: ٣٤). بينما استعرض الدجاني اختلافات المؤرخين في ذلك والتي يذكر بعضها أن مغادرته كانت في العام ١٢٢٣هـ /١٨٠٨م، والآخر ١٢٢٩هـ ١٨١٣م. وثالث يحددها عندما كان عمره ثمانية عشرة سنة تقريباً. ثم يخلص الدجاني بعد ذلك إلى ترجيح عام ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م، ويؤكد على أن المؤرخين الذين تناولوا هذه المسألة قد اعترفوا بوجود هذه الاختلافات ثم سكتوا عنها. (الدجاني، ١٩٦٧: ٤٣- ٤٤)، يوافقه في ذلك (حميدة، ١٩٩٨: ١٢٤).

ومن الذين سكتوا عن تحديد تاريخ مغادرته بلده إلى فاس. مؤرخون جزائريون وليبيون.(فابن شايب الجزائري، ٢٠٠٣: ٢٤١) يذكر أن السنوسي ارتحل من بلده إلى فاس دون تحديد تاريخ لذلك. ومثله (الأشهب، ١٩٤٧: ١٣٤) و(الصلابي، ٢٠٠٦: ٢٤) كلهم يتحاشى ذكر تاريخ المغادرة. ويستشهد الدجاني بقول للملك إدريس [١] في مقدمة كتاب الإيقاظ بقوله عن السنوسي: " ثم ارتحل في حدود العشرين من القرن المذكور إلى محروسة فاس فأقام بها إلى تمام عشرة العشرين ". (الدجاني، ١٩٦٧: ٥٤).

يتضح من خلال ما سبق أن أرجح الأقوال في تحديد مغادرة السنوسي بلاده إلى فاس كانت في حدود ١٢٢٠هـ/ ١٨٠٥م.

وإذا بحثنا عن السبب الرئيسي في مغادرة السنوسي بلاده إلى فاس، نجد أن معظم من كتب عنه يذكر أنه من أجل التزود بالعلم وخاصة في جامعتها "القرويين" باعتبارها

---

(١) تولى الملك إدريس السنوسي حكم ليبيا بعد استقلالها عام ١٩٥٠م واستمر بالحكم حتى عام ١٩٦٩م.

قبلة للعلماء وطلبة العلم (الأشهب، ١٩٤٧: ١٣٤)؛ (شكري، ٢٠٠٥: ٣٤).. وقد تكون هناك أسباب أخرى عجلت برحيله، مثل ما ذكر عن مضايقة حكام الجزائر العثمانيين للعرب في البلاد وخاصة بعض طوائف الزوايا الصوفية ومشايخهم الذين دخلوا في مواجهة عسكرية مع الأتراك قتل على أثرها بعض مشايخ الصوفية في عام ١٢٢٠هـ. (الناصري، ١٩٥٦: ١٠٩/٨).

التحق السنوسي بالقرويين وتتلمذ على كبار علمائها وتبوأ مكانة مرموقة بين علمائها بعد أن حصل على الإجازة من كثير من أشياخ الطرق الصوفية فيها، ثم أصبح مدرساً بالجامع الكبير بمدينة فاس فأقبل عليه تلاميذه ونال شهرة علمية واسعة، وتحدث الناس عنه وعن مواعظه الإصلاحية ورغبته في جمع كلمة المسلمين. مما لفت أنظار السلطة السياسية إليه حيث ظهرت مخاوفها من أن تتحول الدعوة الدينية إلى أخرى سياسية. لذلك شددت حكومة المغرب مراقبتها للسنوسي وبدأت تضايقه مما دعاه إلى اتخاذ قرار الرحيل عن فاس. (شكري، ٢٠٠٥: ٣٥).

يبقى السؤال هنا: كم مقدار المدة الزمنية التي قضاها السنوسي في فاس؟ ومتى غادرها؟ وإلى أين اتجه؟ وهي تساؤلات لا نجد لها إجابات دقيقة ومحددة.

كثير ممن كتب عن السنوسية، يذكر بأن السنوسي أقام في فاس سبع سنوات. (زيادة، برقة، ١٩٥٠: ٥٧)؛ (الصلابي، ٢٠٠٦: ٢٤) وغيرهم. في حين يذكر البعض أنها كانت أكثر من ذلك (الدجاني، ١٩٦٧: ٥٣- ٥٤). بينما نجد (شكري، ٢٠٠٥: ٣٤، ٣٥) يحدد ذلك في عام ١٢٤٥هـ/ ١٨٢٩م وهو الذي سبق وأن رأيناه يجعل مغادرته لبلده في عام ١٢٣٧هـ/ ١٨٢٢م.

يناقش (الدجاني، ١٩٦٧: ٥٣- ٥٤) هذه المسألة باستفاضة ويربطها بالأحداث السياسية التي حصلت في فاس عام ١٢٣٥هـ/ ١٨١٩م. ويقارن ذلك كله بإجابة الملك إدريس السنوسي على سؤاله الشخصي الذي أرسله للملك: "بالنسبة لمخطط تاريخ حياة الجد السيد محمد بن علي السنوسي ... أنه حسب رأيكم سافر إلى فاس حوالي عام ١٢٢٠هـ، وبقي فيها حتى سنة ١٢٣٠هـ، حيث اتجه إلى المشرق. ولقد وجدت في تاريخ أحمد الشريف أن الجد مر بطرابلس سنة ١٢٣٨هـ، فأين قضى السنوات الثماني بين التاريخين المذكورين؟ " فرد عليه الملك:" غادر الإمام مدينة فاس عام ١٢٣٥هـ، متجهاً إلى الجزائر ..."

الواضح من هذا السؤال أن الدجاني يحدد تاريخ مغادرة السنوسي لفاس في عام ١٢٣٠هـ/ ١٨١٤م، بينما إجابة الملك تجعلها عام ١٢٣٥هـ/ ١٨١٩م. وهذا يخالف إلى حد ما ما سبق أن ذكرناه من قول الملك بأن السنوسي أقام في فاس إلى تمام عشرة العشرين. (أي إلى عام ١٢٣٠هـ تقريباً). وفي المقابل نجد (الدجاني، ١٩٦٧: ٥٤- ٥٥) يرجح بعد ذلك أن مغادرة السنوسي لفاس كانت في عام ١٢٣٥هـ، ويربطها بالأحداث السياسية التي حصلت في فاس في العام نفسه من غير أن يستبعد مشاركة السنوسي إلى جانب بعض مشايخه في فتنة فاس التي انتهت بخروج أهلها على السلطان.

إذا أخذنا برأي الملك يكون السنوسي أقام في فاس مدة عشر سنوات في حال أنه غادرها في عام ١٢٣٠هـ، أو خمسة عشر عاماً في حال كانت مغادرته في عام ١٢٣٥هـ، بينما من جعلها سبع سنوات ربطها أيضاً بأحداث فاس

وهذا لا يتفق مع تاريخ فتنة فاس التي كانت في عام ١٢٣٥هـ.[٢]

لذلك فمن المرجح أن السنوسي قد غادر فاساً في عام ١٢٣٥هـ/ ١٨١٩م. فإلى أين اتجه؟

كثيرة هي الأحداث الغامضة في تاريخ السيد محمد السنوسي. فمثل ما اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ مولده وتاريخ مغادرته بلدة مستغانم إلى فاس، لم يتفقوا أيضاً على تحديد دقيق للوجهة التي قصدها بعد مغادرته لفاس، وهم بذلك منقسمون إلى فريقين:

البعض يرى بأنه خرج من فاس وتوجه نحو جنوب الجزائر متنقلاً بين القرى والمدن، وخاصة الواقعة في ملتقى طرق القوافل القادمة من السودان الغربي، يلقى دروساً في الفقه والشريعة ويزور الزوايا ويلتقي بالإخوان ويوثق أواصر المحبة والصداقة وينشئ الصلات العديدة. وقد مكث في جنوب الجزائر حوالي عامين معلماً ومربياً وداعياً. وحدث أثناء ذلك مجيء الحملة الفرنسية إلى الجزائر في عام ١٨٣٠م، فأراد الرجوع إلى بلده للمشاركة في الدفاع عنها ومقاومة المحتلين، لكنه عدل عن ذلك (شكري، ٢٠٠٥: ٣٥- ٣٧)؛ (الصلابي، ٢٠٠٦: ٢٨- ٢٩).

أصحاب هذا الرأي هم الذين جعلوا تاريخ مغادرته بلده مستغانم عام ١٢٣٧هـ/ ١٨٢٢م، وحددوا مدة إقامته في فاس بسبع سنوات، وهذا يتفق مع مجيء الحملة الفرنسية لاحتلال الجزائر في عام ١٨٣٠م.

يتفق عدد من مؤرخي السنوسية المحدثين أن السنوسي بعد أن تنقل بين مدن الجزائر الجنوبية اثر عودته من فاس، قد غادر إلى تونس قاصداً الشرق وأنه لم يعد إلى بلده مستغانم، وتتفق روايات عديدة أن السنوسي كان في الجزائر عند احتلال الفرنسيين لها وأنه هاجر في ذلك العام إلى الشرق (الدجاني، ١٩٦٧: ٥٧).[٣]

غير أن (الدجاني، ١٩٦٧: ٥٧- ٥٨) يخالف كل هذه الآراء بعد مناقشتها ويعتقد بأن السنوسي بعد جولته في مدن الجزائر الجنوبية، عاد إلى مسقط رأسه مستغانم وأن ذلك حصل قبل احتلال الجزائر بحوالي عشر سنوات (١٨٢٠م تقريباً). ويعضد هذا الرأي برأي الملك إدريس الذي يشير فيه إلى أن جده عاد إلى مستغانم وتزوج زواجه الأول من إحدى بنات عمه، غير أنه بسبب خلاف بينه وبين أقاربه انتقل إلى قسنطينة.

لم تكن رحلة السنوسي إلى فاس من أجل الالتقاء بعلمائها والتزود من علومها، كافية لإرضاء نهمه وإرواء عطشه. فما زال يطمع في أخذ كفايته على علماء آخرين بات تواقاً إلى الأخذ عنهم والارتحال إليهم.

كانت الأماكن المقدسة هي وجهته التي أراد أن يولي وجهه شطرها. حيث تبلورت فكرة الرحلة إلى مكة في عقله وحلم طويلاً في العيش في تلك الديار وقضاء فريضة الحج والإقامة في مكة التي تعتبر فرصة ممتازة للقاء كبار العلماء ومفكري العالم الإسلامي حيث يلتقي معظم علماء المسلمين. (الدجاني، ١٩٦٧: ٨٥).

---

(٢) يذكر(الصلابي، ٢٠٠٦: ٢٧)، أن سبب مغادرة السنوسي لفاس، وقوع الفتنة فيها ضد السلطان وتورط بعض مشايخ السنوسي فيها . في حين أن الفتنة كانت عام ١٢٣٥هـ، انظر: (الناصري، ١٩٥٦: ٨/١٣٩).

(٣) وقد ناقش الدجاني هذه الآراء بالتفصيل.

الرحلة الأولى إلى الحجاز

نتيجة للاختلاف في تحديد تاريخ دقيق لمغادرة السنوسي فاس وتحديد الجهة الدقيقة التي قصدها، فمن الصعب أيضاً تحديد المدة الزمنية التي قضاها في الطريق قبل أن يصل إلى مكة.

غادر الجزائر في طريقه إلى الحجاز، فدخل تونس وتنقل بين مراكزها العلمية من أجل التدريس. ثم واصل سيره إلى أن وصل طرابلس الغرب في أيام حكم يوسف باشا القره مانللي (١٢١٠هـ/ ١٧٩٥ – ١٢٤٨هـ/١٨٣٢م) فأكرم وفادته، ومكث مدة في طرابلس وضواحيها للوعظ والإرشاد والتعليم، وتوثقت علاقته ببعض العائلات الطرابلسية وكسب لدعوته أنصاراً وأعواناً. (الصلابي، ٢٠٠٦: ٣٠).

يرى بعض المؤرخين أن السنوسي قد مرّ بطرابلس في عام ١٢٣٨هـ/١٨٢٢م، فالدجاني يروي من حديث عابر لأحمد الشريف عن اجتماع جده السنوسي بأحد مريديه واسمه عمران بن بركة بطرابلس، قوله:" فكان اجتماعه به أثناء مروره عليهم قادماً من المغرب إلى المشرق سنة ثمان وثلاثين بعد المائتين والألف في بلدة زليتن بقرب طرابلس الغرب" (الدجاني، ١٩٦٧: ٥٩) (٤).

وبناءً على ما سبق فمن المرجح أنه غادر الجزائر في طريقه نحو المشرق في حدود عام ١٢٣٧هـ، أو العام الذي قبله.

استغرقت رحلة السنوسي منذ خروجه من الجزائر متوجهاً نحو المشرق قرابة السنتين حتى وصل إلى مصر في عام ١٢٣٩هـ/ ١٨٢٤م، تنقل خلالها بين المدن التونسية والليبية ووثق العلاقات الحميمة مع كثير من العلماء وطلاب العلم الذين أصبح له منهم- فيما بعد- نواباً في طرابلس وأنصاراً في العديد من المدن الليبية وألقى دروساً وعظية في العديد من مساجد المدن والقرى التي قدر له أن يقوم بزيارتها. (الصلابي، ٢٠٠٦: ٣٠).

توجه السنوسي عند وصوله إلى القاهرة إلى الجامع الأزهر طمعاً في الالتحاق بأحد أروقته لاستكمال ما بدأه من دراسة علمية، خاصة وأن الأزهر كان يشتهر بكثرة العلماء الذين سمع السنوسي عنهم قبل وصوله إلى القاهرة، فكان يريد الإقامة فيها بعض الوقت للأخذ على كبار علمائها وللتعرف على الأزهر الشريف. لكن يبدو أنه قد استعجل في مغادرة مصر متوجهاً إلى الحجاز.

إذا بحثنا عن مقدار مدة بقائه في مصر، سنجد اختلافاً في تقديرها. فالبعض يذكر أن إقامته في القاهرة لم تطل أكثر من عدة أسابيع (بعيو، ١٩٥٣: ٢٤).، في حين يجعلها البعض عاماً كاملاً (الدجاني، ١٩٦٧: ٦٤)؛ (الصلابي، ٢٠٠٦: ٣٥).، وثالث ذكر بأنه أقام في القاهرة مدة ولم يحددها (زيادة، برقة، ١٩٥٠: ٥٨).

من الواضح أن السنوسي لم تطل إقامته في مصر رغم أنه كانت له الرغبة في الإقامة مدة أطول لكن عوامل كثيرة قد عجلت برحيله.

كان السنوسي عظيم الشغف بالجلوس إلى كبار علماء الشرع الذين كان يسمع بهم وخاصة في مصر والحجاز. وكان وصوله إلى القاهرة في الوقت الذي كان محمد علي يحكم في مصر. ولم يكن الأزهر حينذاك يتمتع بالشهرة العلمية التي أمل السنوسي أن يجدها فيه. حيث اقتصر

(٤) ويوافقه في تحديد هذا التاريخ الصلابي.

تعليم العلوم فيه على الطرق التقليدية وأهمل بقية العلوم الأخرى. على العكس من ما في جامع القرويين الذي كان الحال فيه أفضل حيث كانت العلوم الحديثة لها في أروقته نصيب.

كان السنوسي عندما وصل إلى مصر يتمتع بشهرة كبيرة كعالم جليل له تلاميذ كثيرون. معتداً بشخصيته وعلمه وكفاءته واستقلاله في الرأي، وعدم مداراة للحكام أو السعي إلى رضاهم. مما جعل كثيراً من علماء الأزهر الذين تربطهم بالسلطة روابط وثيقة يخشون من تبعات حضور حلقات ودروس السنوسي التي بدأ يلقيها في الأزهر. بل أثار بموقفه هذا معارضة شديدة من جانب مشايخ الأزهر وعلمائه الذين اعتبروه متطرفاً في آرائه الدينية وتعاليمه وسعوا في التخلص منه وصدرت فتوى في تكفيره. لم يكن السنوسي مرتاحاً إلى نوع الحكم الذي أقامه محمد علي في مصر وخاصة ما يتعلق بنظرته إلى العلماء وإضعاف دورهم، وبث المنافسات والضغائن بينهم، واستعانة بعضهم بالحكام واستعداء السلطة على بعضهم. كما نقم السنوسي على محمد علي بسبب انصرافه عن دعوة نقباء الأمة لاستشارتهم في تدبير شؤون الحكم. ولم تبهره انتصارات محمد علي وتوسعه و إصلاحاته الواسعة. ويرى السنوسي بأن ذلك كله منه قد ساهم في إضعاف الدولة العثمانية. توصل السنوسي أثناء إقامته في القاهرة إلى قناعة تأكد من خلالها أن العالم الإسلامي بحاجة ماسة إلى تحصيل علوم كثيرة خلاف العلوم العقلية والنقلية، أهمها: العلوم الصناعية، والرياضية، والفنون الحربية، ونحوها. كما تبيّن له أن الحواجز والعقبات التي منعت تقدم المسلمين كانت اختلاف المذاهب وكثرة الطرق والحكم الفردي والاستبدادي.(شكري، ٢٠٠٥: ٣٧- ٣٩)؛ (الدجاني، ١٩٦٧: ٦٠- ٦٢)؛ (الصلابي، ٢٠٠٦: ٣- ٣٤).

نستنتج مما سبق بأن أسباب مغادرته السريعة لمصر كانت بسبب خلافه مع علماء الأزهر ومعارضتهم له. إضافة إلى خيبة أمله لدى رؤيته وضع الأزهر وخاصة في مسألة نقص النشاط الروحي والدراسة الصوفية. كما أنه لم يجد التقدير والشرف اللذين تعوَّد أن يلقاهما من تلامذته في المغرب العربي.كما أنه لم يبد ارتياحه لحكم محمد علي لتهميشه دور ممثلي الأمة.(الدجاني، ١٩٦٧: ٦٤). لقد وجد السنوسي من علماء الأزهر نفوراً قويّاً حيث بدا لهم شاباً، يحاول الخروج عما ألفه العلماء من دعة وراحة وتسليم مطلق للحاكم المستبد إلى جانب خمولهم وضيق أفقهم العلمي. وقد استطاع محمد علي أن يسيطر عليهم بعد أن مهدوا لولايته على مصر، ولم يكن والي مصر ليرحب بالسنوسي. كل هذه الأسباب عجلت بتركه للقاهرة وسفره إلى الحجاز. (بعيو، ١٩٥٣: ٢٤).

اختلف المؤرخون كثيراً في تحديد تاريخ مغادرة السنوسي لمصر في طريقه إلى الحجاز. فالبعض يرى بأنه غادر القاهرة في أوائل الثلاثينات من القرن التاسع عشر دون تحديد لعام. (شكري، ٢٠٠٥: ٤٣). بينما يذكر آخر بأنه رحل إلى الحجاز وعاش في مكة منذ ١٨٣٠م (عبد الرحيم، ١٩٨٢: ٩٤) والبعض يذكر بأنه سافر إلى الحجاز في عام ١٢٣٧هـ/ ١٨٢٣م. (الأشهب، ١٩٤٧: ١٣٤). ومنهم من يقول بأنه غادر الحجاز عام ١٢٥٥هـ بعد أن أقام فيه خمسة عشر سنة. أي إنه يجعل تاريخ قدومه إلى الحجاز في عام ١٢٤٠هـ. (الصلابي، ٢٠٠٦: ٣٨).

إذا عرفنا من خلال ما سبق بأن وصوله إلى مصر كان في عام ١٢٣٩هـ/١٨٢٤م تقريباً، وأدركنا جيداً بأن إقامته في مصر لم تكن طويلة، فإن أقرب التواريخ التي يمكن للمرء أن يميل لها كتحديد لمغادرته مصر وبلوغه الحجاز هي عام ١٢٤٠هـ/١٨٢٥م.

أما ما ذكره البعض (بعيو،١٩٥٣: ٢٥)، من أن السنوسي قد عاد من الحجاز إلى الجزائر في عام ١٨٢٩م، وبقي هناك إلى عام ١٨٣٣م، فهو رأي شاذ يصعب الأخذ به، خاصة إذا عرفنا بأن الجزائر قد أصبحت مستعمرة فرنسية منذ عام ١٨٣٠م. ولم يكن السنوسي شخص مرغوب فيه من قبل السلطات الاستعمارية الفرنسية.

وصل السنوسي الحجاز على الراجح في عام ١٢٤٠هـ/ ١٨٢٥م، ونزل بمكة المكرمة وكان يحكمها حينذاك الوالي العثماني على مصر محمد علي بطريق غير مباشر. وكانت آثار الحركة السلفية للشيخ محمد بن عبد الوهاب لا تزال باقية فيها إبان تلك الفترة. وقد وجد السنوسي في مكة ضالته حيث أقبل على العلماء يتعرَّف عليهم ويأخذ عنهم. وكانت مكة تضمُّ عدداً كبيراً من العلماء المسلمين يمثلون المذاهب والاتجاهات. الفكرية المختلفة، مما أتاح له فرصة الاطلاع والتعرف على كل تلك الاتجاهات. وأشهر من التقى به من العلماء في مكة هو أستاذه أحمد بن إدريس الملقب بأبي العباس العرائشي (الدجاني،١٩٦٧: ٦٦- ٦٧).[٥]

(٥) ولد أحمد بن إدريس عام ١١٧٣هـ، أصله من المغرب الأقصى، ثم هاجر إلى مكة واستقر فيها وأصبح من علماء وقته، تأثر به السنوسي وصحبه في رحلته إلى صبيا التي يبدو أنه بقي فيها حتى وفاته في عام ١٢٥٣هـ تقريباً، انظر (الدجاني، ١٩٦٧: ٣٦).

تعتبر هذه الرحلة هي الأولى للسنوسي إلى الحجاز، وستليها أخرى وربما ثالثة [٦]، ويبقى السؤال كم مدة إقامته في الحجاز في الرحلة الأولى؟

توجد اختلافات عديدة في تحديد مدة إقامة السنوسي الأولى في الحجاز، فالبعض يذكر أنه مكث في الحجاز ثمان سنين (بن شايب الجزائري،٢٠٠٣: ٢٤١). في حين يرى البعض الآخر أنه جاء إلى الحجاز في عام ١٨٣٠م وأقام فيها حتى عام ١٨٤٠م، بمعنى أنه أقام فيها عشر سنين (عبد الرحيم،١٩٨٢: ٩٤- ٩٥).

ومنهم من يذكر أن السنوسي عاش في الحجاز ست سنوات، ثم غادرها في عام ١٢٤٥هـ/ ١٨٢٩م. (بعيو،١٩٥٣: ٢٤- ٢٥). وهذا رأي شاذ – كما أسلفنا – لكن صاحبه يذكر بأن إقامته في المرة الثانية في الحجاز كانت ثمان سنوات باعتبار أنه وصل إليها في عام ١٨٣٣م. وما أشار إليه هذا المؤلف ينطبق تماماً على الرحلة الأولى التي نحن بصدد مناقشة مدتها. (بعيو،١٩٥٣: ٢٥).

إذا عرفنا بأن كثيراً من المؤرخين يتفقون على أن السنوسي قد غادر الحجاز في رحلته الأولى تقريباً عام

(٦) لم نجد خلال هذه الدراسة من أشار إلى أن السنوسي قد قام بثلاث رحلات إلى الحجاز سوى عند (بعيو،١٩٥٣: ٢٥- ٤١) الذي يذكر بأن السنوسي رحل إلى الحجاز في المرة الأولى عام ١٨٢٣م، وغادرها ١٨٢٩م، ثم عاد إلى الحجاز عام ١٨٣٣م، وبقي فيها ثماني سنوات وغادرها في عام ١٨٤١م، وعاد للمرة الثالثة إلى الحجاز في عام ١٨٤٦م. ولذلك فمن المستبعد أن يكون للسنوسي رحلة من الجزائر إلى الحجاز في عام ١٨٣٣م، قد سبقت رحلتيه الأولى والثانية، لأنها لا تتفق مع سياق الأحداث السياسية في الجزائر من جهة ولعدم ذكرها في المصادر من جهة أخرى.

١٢٥٥هـ /١٨٤٠م، (زيادة، ليبيا،١٩٦٦: ٦٦)؛ (عبد الرحيم،١٩٨٢: ٩٥)؛ (شكري،٢٠٠٥: ٤٤)؛ (الدجاني،١٩٦٧: ٧٥)وغيرهم. فإن أرجح الأقوال بأنه قد مكث في الحجاز أثناء رحلته الأولى مدة خمسة عشر عاماً باعتبار ما سبق ذكره عن بلوغه الحجاز في عام ١٢٤٠هـ/ ١٨٢٥م. ويرجح هذا الرأي ما ذكره البعض صراحة عن أن السنوسي قد مكث في رحلته الأولى بالحجاز مدة خمسة عشر عاماً وأنه قد غادرها في ٢٦من شهر ذي الحجة سنة ١٢٥٥هـ/ أو في آخر يوم من العام نفسه (الدجاني،١٩٦٧: ٧٥)؛ (الصلابي،٢٠٠٦: ٩٣).

وإذا بحثنا عن أسباب مغادرة السنوسي للحجاز سنجد أنه أقام في مكة أثناء هذه الرحلة مدة ثم تركها ورحل إلى مدينة صبيا وأقام فيها مدة ثم عاد إلى مكة ومكث بها مدة ثم ارتحل عن الحجاز يريد العودة إلى بلاده.

فما هي أسباب تلك التنقلات؟

أقام السنوسي في بداية الأمر بمكة وقد أقبل على علمائها يتعرف عليهم ويأخذ منهم، حيث كانت مكة تضم عدداً من علماء المسلمين. وقد حرص السنوسي على أن ينتهز الفرص المتاحة للتباحث مع جميع فضلاء ومفكري الإسلام عند وفودهم إلى الديار المقدسة، يتلقى عنهم المعلومات ويتعمق معهم في البحث والتمحيص عن أحوال العالم الإسلامي وعن السبل الكفيلة بالنهوض به. فإذا أطمأن إلى صدق نظرهم وموافقتهم لرأيه، تحدث إليهم فيما يسعى إليه ويتمنى تحقيقه، وهو إصلاح أحوال المسلمين على أساس الاتحاد وجمع الكلمة والتآزر وشدّ الصفوف. (شكري،٢٠٠٥: ٤٣).

أخذ السنوسي العلم في مكة عن شيوخ كثيرين وكان أشهرهم شيخه الذي لازمه حتى وفاته وهو أحمد بن إدريس الفاسي، أصله من المغرب، تلقى العلم على أكابر علمائها ثم هاجر إلى الحجاز واستقر بمكة. (الصلابي،٢٠٠٦: ٣٦). اجتمع به السنوسي ولازم دروسه وتوثقت العلاقة بينهما، فكان السنوسي لا يقطع أمراً دون شيخه. كما أن الشيخ كان يستشيره في جل قضاياه. (شكري،٢٠٠٥: ٤٤). لدرجة أنه كان يقول للسنوسي: " أنت نحن ونحن أنت "، ويقول: " وأما ولدنا السيد محمد بن السنوسي فنحن أمرناه أن يدل الخلق على الله ويجذب الطالبين إلى الله. إياكم ثم إياكم من كل ما يقطعكم عن صحبته فإنه النائب عنا قد اختاره الله لذلك ... ونحن ما أقمناه حتى أقامه الله ورسوله ..." (الدجاني،١٩٦٧: ٦٨- ٦٩).

ويبدو أن السنوسي بعد أن استراحت نفسه لما حصل له من العلم في مكة، بدأ يفكر في ضرورة الدعوة للإصلاح ونشر أفكاره في الحجاز. لذلك نجده بعد أن لازم أستاذه لفترة يأخذ الإذن منه للقيام بهذا الأمر. فبدأ بإعطاء الدروس وتعليم من يجتمع حوله من المريدين وطلاب العلم. وقد تمكن من جمع أعداد كبيرة من التلاميذ والأتباع والمريدين. (الصلابي،٢٠٠٦: ٣٨).

ظلّت عرى المودة بين السنوسي وشيخه ابن إدريس قوية مترابطة، حتى صعب على الشيخ أن يرى تلميذه يعيش عازباً، فقام بتزويجه من زوجته الثانية السيدة خديجة الحبشية والتي رافقته في رحلاته حتى وفاتها في الجغبوب حوالي عام ١٢٩٦هـ ١٨٧٨م (الدجاني،١٩٦٧: ٧٢).

ارتحل شيخه ابن إدريس إلى صبيا [٧]، بسبب ما وجده من عنف السلطات الحكومية ومعارضة علماء مكة الذين صاروا ينتقدونه على اعتبار أنه كان لا يتفق في منهجه ودروسه مع ما اعتاد عليه هؤلاء العلماء منذ أزمان طويلة فاعتبروه مبتدعاً، وأكثروا من انتقاده. ثم انقلب نقدهم له إلى اضطهاده (شكري، ٢٠٠٥: ٤٤).. كان علماء مكة قد أثاروا في وجهه معارضة قوية ورموه بتهمة مخالفة المذهب المالكي وما جاءت به السنة النبوية. (بعيو، ١٩٥٣: ٢٦).

أمام هذه المعارضة الشديدة من سلطات مكة وعلمائها، اضطر الشيخ أحمد بن إدريس إلى الارتحال عن الحجاز متوجهاً إلى صبيا التي كانت حينذاك تحت تأثير الدعوة السلفية وله فيها تلاميذ وأنصار.

إن اختيار ابن إدريس الهجرة إلى صبيا دليل على حسن الصلة بينه وبين أتباع حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، حيث كانت مبادئ الدعوة السلفية متمكنة في نفوس أهلها وهذا ما كان يكرهه علماء الدولة العثمانية في مكة وأتباعها. (الصلابي، ٢٠٠٦: ٣٧).

لا نجد حسب المصادر التي بين أيدينا تاريخاً محدداً لهجرة ابن إدريس من مكة إلى صبيا، غير أن البعض يرجح أنها كانت قبل وفاة ابن إدريس بثلاث سنوات (الدجاني، ١٩٦٧: ٧٢). وتبقى المشكلة في معرفة متى توفي ابن إدريس؟

معظم المصادر التي تحدثت عن السنوسية تجاهلت تحديد تاريخ وفاة شيخ السنوسي ابن إدريس. لكننا نجد بعض الإشارات التي تذكر بأنه توفي حوالي ١٨٣٥م، أو ١٨٣٧م/ ١٢٥٣هـ، في صبيا (الدجاني، ١٩٦٧: ٧١)؛ (شكري، ٢٠٠٥: ٤٤)؛ (حميدة، ١٩٩٨: ١٢٥). كما نجد بعض الإشارات التي تجعل إقامته في صبيا لمدة عامين (بعيو، ١٩٥٣: ٢٦). وبناء على ذلك فمن المحتمل أن ابن إدريس قد غادر مكة إلى صبيا في حدود عام ١٢٥١هـ/ ١٨٣٥م.

كما أسلفنا كانت عرى الصداقة والمودة قد استحكمت بين السنوسي وشيخه ابن إدريس. ولذلك فحينما هاجر شيخه من مكة إلى صبيا اصطحب معه السنوسي لما توسمه فيه من تجاوب روحي فضلاً عن فهم كل منهما للآخر (بعيو، ١٩٥٣: ٢٦). أقام السنوسي مع شيخه في صبيا حتى توفي ابن إدريس الذي جعل السنوسي وصياً على أولاده من بعده وإماماً للطريقة. (الأشهب، ١٩٤٧: ١٣٥).

عاد السنوسي بعد وفاة شيخه إلى مكة في حدود عام ١٢٥٣هـ/ ١٨٣٧م، حيث أنشأ أولى الزوايا السنوسية في الحجاز، وهي زاوية جبل أبي قبيس في عام ١٢٥٣هـ/١٨٣٧م التي أقام فيها مدة يلقي دروسه وينشر تعاليمه بين أتباعه ومريديه. (زيادة، برقة، ١٩٥٠: ٥٩)؛ (شكري، ٢٠٠٥: ٤٤).

لم تطل إقامة السنوسي في مكة بعد عودته من صبيا حيث تظافرت أسباب عديدة دعته إلى مغادرة الحجاز والانتقال إلى المغرب العربي في أواخر عام ١٢٥٥هـ/ ١٨٤٠م كما يشير البعض. (الصلابي، ٢٠٠٦: ٣٨). في حين يذكر (الدجاني، ١٩٦٧: ٧٥) أنها كانت في آخر يوم من سنة ١٢٥٥هـ.

(٧) مدينة تقع في منطقة جازان، جنوب المملكة العربية السعودية.

إذا بحثنا عن أسباب مغادرته الحجاز في زيارته الأولى، سنجد أن لها ارتباطاً وثيقاً بالموقف السابق من شيخه ابن إدريس.

صار للسنوسي بعد عودته إلى مكة وتأسيسه للزوايا العديدة، أنصار وأتباع ومريدون واستجاب لدعوته الإصلاحية أعداد كبيرة من جموع الحجيج الذين كان يلتقي بهم في كل موسم أثناء إقامته في مكة. كما استجاب له عدد من أهل طرابلس الغرب والحجاز، وأصبحت زاوية أبي قبيس مركزاً لأولئك المريدين يدرسون ويتعبدون وكثر المتحمسون للطريقة السنوسية (الدجاني، ١٩٦٧: ٧٣).

اشتهر السنوسي بالدعوة إلى الاعتماد على القرآن والسنة واقتفاء أثر السلف الصالح وفتح باب الاجتهاد. مما حرك ضده عداوة شيوخ مكة وعلمائها الذين كانوا يخالفونه وينتقدون اعتماده الصريح الخالص على الكتاب والسنة في دروسه وإرشاده وتعليمه وإقامته الحجة في أن الاجتهاد لم يغلق بابه (الصلابي، ٢٠٠٦: ٣٨). والاجتهاد عند السنوسية هو اجتهاد مطلق منتسب، بمعنى أن الرجوع إلى الكتاب والسنة متاحان ولكن المجتهد عليه أن يتبع في أصول الفقه أحد المذاهب الأربعة (عبد الرحيم، ١٩٨٢: ص٩٥).

كانت السلطات الحكومية في مكة قد استرابت من نشاط السنوسي وكثرة زواياه في الحجاز التي شملت الطائف والمدينة المنورة وبدر وجدة وينبع وغيرها. وزادت مخاوف حكومة الحجاز حينما تأكدت من أن السنوسي ظل على علاقة وثيقة بأبناء أستاذه وشيخه ابن إدريس في صبيا وهي – كما يدعون أرض وهابية – وكان العداء مستحكماً بين الحكومة العثمانية والأشراف بمكة وبين أنصار الدعوة السلفية للشيخ محمد بن عبد الوهاب.ولذلك بدأت حكومة مكة تشعر بخطورة السنوسي وخطورة الدعوة التي يحملها من جراء التفاف الناس حوله. (الدجاني، ١٩٦٧: ٧٤)؛ (الصلابي، ٢٠٠٦: ٣٨).

لقد أقبل الناس على دعوة السنوسي وخاصة من بعض قبائل البادية في الحجاز. فكان التفاف القبائل الحجازية البدوية حوله قد أثار عليه حسد الآخرين، فبدؤوا يناصبونه العداء كما ناصبوا شيخه ابن إدريس من قبل وبدأت السلطات العثمانية تساورها الشكوك وتحسب لنشاطه حساب، منطلقة بذلك مما سبق أن عانته من جراء نشاط الزعيم المصلح محمد بن عبد الوهاب وحركته الإصلاحية. ولهذا رأت الحد من نشاطه وتقييد دعوته الإصلاحية يساعدها في ذلك موقف علماء مكة ومعارضتهم القوية له. كما أن أشراف مكة ساهموا بدورهم في خلق مثل هذه المصاعب في وجهه خوفاً على مكانتهم في أوساط الشعب. وهكذا تحالفت ضده هذه القوى الثلاث، فلم يجد السنوسي بُدّاً من ترك الحجاز كما فعل شيخه من قبل. (بعيو، ١٩٥٣: ٢٧).

مما سبق يمكن أن نقول بأن أسباب مغادرة السنوسي لمكة تتمثل في وفاة شيخه ورفيق دربه الشيخ أحمد بن إدريس في صبيا في عام ١٢٥٣هـ/ ١٨٣٧م. كما أن نجاحه في دعوته قد أثار ضده عداوة مشايخ مكة وعلمائها. إلى جانب مخاوف حكومة الأشراف والعثمانيين من صلاته وارتباطه بأتباع وأنصار حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتأثره به وتبني مبادئها وأصولها. إضافة إلى كثرة أتباعه ومؤيدي دعوته لاسيما من أهل المغرب العربي الذين ما برحوا يلحون عليه بقبول دعوتهم لزيارة بلادهم.

كان أكثر أهل بلاد المغرب الذين ألحوا على السنوسي بالقدوم إليهم هم أهل طرابلس الغرب الذين حضروا إليه لمعرفة وصداقة سابقة بينهم وبينه حينما مر ببلادهم أثناء رحلته الأولى إلى الحجاز. لذلك قرر أن يغادر الحجاز إلى برقة ليبتدئ بذلك بنشر الدعوة السنوسية في الأراضي الليبية (شكري، ٢٠٠٥: ٤٥- ٤٦).

خرج السنوسي من مكة باتجاه المدينة المنورة ومنها إلى ينبع مرافقاً للمحمل المصري ووصل إلى مصر وزار الأزهر وبعض المدن المصرية. وكانت أيامه في مصر حافلة بالنشاط حيث وثق صلاته بكثير من الأتباع والأنصار وتنقل بين المدن المصرية حتى وصل إلى برقة في ليبيا ومنها إلى مصراته فطرابلس التي كان واليها حينذاك عشقر علي باشا ينتظر وصوله لما بينهما من المحبة والصداقة. وكان السنوسي يريد المواصلة نحو الغرب، لكنه أدرك أن الفرنسيين يتتبعون أخباره ويتربصون به وشعر بأن حياته ربما تكون في خطر، وأن الحجاج من مسلمي المغرب العربي كان فيهم بعض ضعاف النفوس الذين وظفتهم فرنسا للتجسس عليه وكتابة التقارير عن نشاطه في الحجاز. لذلك آثر العودة إلى طرابلس بعد أن خرج منها باتجاه الغرب (الدجاني، ١٩٦٧: ٧٥- ٧٨).

بعد ما مكث في الأراضي المصرية قرابة عام ما بين تدريس وتأليف ومرض بسبب الحمى (الدجاني، ١٩٦٧: ٧٦- ٧٧) وصل السنوسي إلى طرابلس، على ما يبدو، حوالي عام ١٢٥٧هـ/١٨٤١م، وكان يرافقه في هذه الرحلة بعض أتباعه من الحجاز واليمن وتونس والسودان وغيرها. وكان يطلق عليهم اسم الإخوان

لم تعجبه الإقامة في طرابلس فتركها بعد بضعة أشهر وتوجه شرقاً حتى استقر بالجبل الأخضر من برقة حيث أمر ببناء الزاوية البيضاء التي تعتبر أم الزوايا السنوسية (الأشهب، ١٣٨: ١٩٤٧- ١٤١)؛ (الدجاني، ١٩٦٧: ٨٢- ٨٣). وقد يكون سبب ابتعاده عن طرابلس يعود إلى أن العثمانيين بنوا فيها إدارة مركزية جديدة بعلمائها ومفتيها وقضاتها. وكان السنوسي حذراً من العلماء الحضريين إضافة إلى أنه أدرك أن الدولة العثمانية ضعيفة ولم تتمكن من حماية بلده الجزائر وفرنسا تهدد تونس. ولذلك فضل الابتعاد والتوجه إلى دواخل برقة التي حكمتها قبائل مستقلة عن الإدارة العثمانية. (حميدة، ١٩٩٨: ١٢٥).

كان إنشاء الزاوية البيضاء في الجبل الأخضر – على ما يبدو – في عام ١٢٥٨هـ/ ١٨٤٢م (حميدة، ١٩٩٨: ١٢٥)؛ (عبد الرحيم، ١٩٨٢: ٩٥). أو السنة التي تليها. (زيادة، ليبيا، ١٩٦٦: ٦٦؛ وفي كتابه عن برقة، ص٥٨) ؛ (بعيو، ١٩٥٣: ٣٥). في حين يجعل البعض ابتداء نشاط السنوسي في برقة اعتباراً من عام ١٢٥٧هـ/١٨٤١م (الزاوي ، ٢٠٠٤: ٣٤٦).

الرحلة الثانية إلى الحجاز

بعد أن اطمئن السنوسي على مستقبل الدعوة السنوسية في إقليم برقة، خاصة بعد حصول تقارب بينه وبين الدولة العثمانية التي كانت في حاجة إلى من ينوب عنها في بعض المناطق القبلية البعيدة عن سيطرتهم المتمركزة أصلاً في السواحل. وبعد أن أرسى قواعد الدعوة وثبت أسسها، رأى أنه من الضرورة العودة من جديد إلى الحجاز لتفقد ما سبق أن وضع أسسه هناك ولنشر دعوته الإصلاحية في مختلف أصقاع العالم الإسلامي عن طريق

وفود الحجاج الذين سيلتقي بهم في المواسم مع التزود من روحانية الأراضي المقدسة بما يساعده على ما هو قائم بأمره من إصلاح.

كانت رحلته الثانية إلى الحجاز في عام ١٢٦٢هـ/ ١٨٤٦م، حيث مكث في أرض الحجاز مدة ثمان سنوات على أرجح الأقوال(بعيو،١٩٥٣: ٤١)؛ (شكري، ٢٠٠٥: ٦١) (؛ الدجاني،١٩٦٧: ٩٢). وإن كان البعض يجعل رحلته الثانية إلى الحجاز محصورة بين عامي ١٢٦٢- ١٢٦٩هـ. (الزاوي،٢٠٠٤: ٣٤٦). وآخر يرى بأنه وصل إلى الحجاز في عام ١٨٤٦م ومكث بها أربع سنوات. (حميدة،١٩٩٨: ١٢٥).

لقد حفلت إقامته الثانية في الحجاز بالنشاط الدعوي وأكثر من إنشاء الزوايا، مع العلم بأنه لم يسلم من معارضة قوية من علماء الحجاز لم تكن بأقل من معارضتهم له في المرة الأولى. ورغم ذلك نجح في إقناع كثير من قبائل الحجاز باتباع دعوته مثل قبائل حرب وبني الحارث. وكان أثناء إقامته تلك في الحجاز يحج كل عام ويلتقي بقادة الحج القادمين من أنحاء العالم الإسلامي (الدجاني،١٩٦٧: ٨٩- ٩٢).

حرص السنوسي أثناء إقامته الثانية في الحجاز على تعليم القبائل وإرشادهم إلى دينهم، كما ألَّف بعض الكتب لمريديه في مكة ورتب أمور الزوايا وعين مشايخها وزودهم بتعاليمه وحرضهم على سلوك طريقته، كما كان على اتصال مستمر بأتباعه في برقة.(الصلابي، ٢٠٠٦: ٥٥- ٥٨).

أثناء إقامة السنوسي الثانية في الحجاز التحق به ابنه محمد المهدي وهو ابن سبع سنين، والتقى به في المدينة المنورة وبقي معه في الحجاز حوالي سنتين. (شكري، ٢٠٠٥: ٦١- ٦٢).

كان السنوسي أثناء إقامته الثانية في الحجاز قد توثقت علاقته أيضاً بشريف مكة الشريف عبد المطلب الذي لم تكن علاقته بالدولة العثمانية جيدة، لكن لا يعني ذلك أن السنوسي قد اتخذ موقفاً معادياً للدولة العثمانية لأنه لم يكن خلال سيرته ينهج مثل هذا النهج بل دائماً يؤكد على تكريس مبدأ الوحدة. (الدجاني،١٩٦٧: ٩٥).

بعد أن أقام هذه المرة في الحجاز مدة ثمان سنوات تقريباً، قرر السنوسي المغادرة، وكان – كما يذكر البعض – ينوي زيارة الشام وبيت المقدس لكن أهل برقة ألحوا وأصروا على اصطحابه معهم إلى الجبل الأخضر لأنه اشتد قلقهم عليه لطول غيبته عنهم حيث كانوا في كل موسم حج يرسلون إليه ويطالبونه بالعودة إليهم. (الدجاني، ١٩٦٧: ٩٥).

اختلفت الروايات التاريخية كثيراً في تحديد تاريخ مغادرة السنوسي الثانية من الحجاز. فالبعض يرى أنه غادر الحجاز في عام ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٤م. (شكري،٢٠٠٥: ٦٣)؛ (الدجاني،١٩٦٧: ٩١)؛ (الصلابي، ٢٠٠٦: ٥٩). في حين يحددها البعض في عام ١٢٦٩هـ /١٨٥٢م. (الزاوي،٢٠٠٤: ٣٤٦)؛ (الأشهب،١٩٤٧: ١٧٠). وفريق ثالث يحددها بسنوات ١٢٦٧هـ/١٨٥٠م (حميدة، ١٩٩٨:١٢٥)،، ١٢٧٠هـ/١٨٥٣م (بعيو،١٩٥٣: ٤١)،، ١٢٧٣هـ/ ١٨٥٦م (زيادة، برقة ،١٩٥٠: ٦٦).

تبقى أرجح التواريخ لمغادرة السنوسي الحجاز في المرة الثانية هي عام ١٢٧٠هـ/١٨٥٤م، إذا عرفنا أنه وصل إلى الحجاز في هذه المرة ١٢٦٢هـ/١٨٤٦م وبقي فيها ما يقرب من ثمان سنوات.

مر السنوسي بمصر في عودته إلى برقة، ولم تطل إقامته فيها رغم تقديم الحكومة المصرية بعض التسهيلات له، لكنه استمر في رحلته ناحية الغرب حتى وصل الجبل الأخضر ونزل بمكان يعرف بالغزيات وهو قصر قديم فرممه وأصلحه وسماه بالعزيات وهو واقع في السفح الجنوبي من الجبل الأخضر (الدجاني،١٩٦٧: ٩٧- ١٠١). لم تطل إقامة السنوسي في زاوية العزيات كثيراً . ولأول مرة نجد شبه إجماع على أن إقامته في العزيات كانت لمدة سنتين. غادرها بعد ذلك متوجهاً إلى واحة الجغبوب في الصحراء.(شكري،٢٠٠٥: ٦٧)؛ (الأشهب،١٩٤٧: ١٧١)؛ (بعيو،١٩٥٣: ٤٢)، وغيرهم.

اتخذ السنوسي الجغبوب مقراً أخيراً له، بعد دراسة وتفهم لأهميتها وموقعها الاستراتيجي. فهي على مسافة تجعل من الصعب على السلطات العثمانية المتمثلة في حكام المدن الساحلية أن تراقبه أو تهتم بأمره. كما أنها أيضاً في مأمن ومنأى عن أخطار وأعين الفرنسيين. وهي تقع على ملتقى طريقين هامين للقوافل أحدهما للحجاج والآخر للقوافل التجارية. أيضاً سكان تلك المناطق الصحراوية كانوا في نظر السنوسي بحاجة إلى من يفقههم في أمور دينهم وكانوا من البدو الذين يضطرون أحياناً إلى النزوح نحو الصحراء حينما يحدث خلاف بينهم وبين السلطات العثمانية. خاصة وأنه قد ازدادت عداوة علماء القاهرة واستانبول لأفكار السنوسي فرأى أن يتوغل في الصحراء بعيداً عن العثمانيين وقريباً من هؤلاء البدو لكي ينشئ لهم زوايا يأوي إليها النازحون ويجدون فيها الأمن والأمان (بعيو،١٩٥٣: ٤٣)؛(شكري ٢٠٠٥: ٦٧)؛ (الصلابي،٢٠٠٦: ٦٠).

أقام السنوسي في واحة الجغبوب وأمر أتباعه بإنشاء العديد من الزوايا في أنحاء متفرقة من الصحراء. وكان قد شعر بكبر سنه وحاجته إلى العزلة التامة والوحدة للتفرغ للعبادة، لاسيما وقد التحق به ابنه المهدي قادماً من الحجاز في عام ١٢٧٤هـ/ ١٨٥٧م. وأصبحت الجغبوب هي المركز الرئيسي للسنوسي وفيها التم شمل كبار أصحابه من المغرب ومصر والحجاز. ازدهرت الجغبوب وأصبحت منارة للعلم والإصلاح يقصدها الطلاب والتجار والعلماء.

وفاته

يحدد البعض وفاته في اليوم والشهر والعام، حيث تشير بعض الروايات إلى أنه توفي في ٩صفر ١٢٧٦هـ الموافق ٧ سبتمبر ١٨٥٩م (الأشهب،١٩٤٧: ١٧٢)؛ (زيادة، ليبيا،١٩٦٦: ٦٨)؛ (بعيو،١٩٥٣: ٧١)؛ (الزاوي،٢٠٠٤: ٣٤٦). (٨)، بينما يجعلها البعض في ٩ صفر عام ١٢٧٧هـ الموافق ٧ سبتمبر ١٨٥٩م. (شكري،٢٠٠٥: ٦٩). والبعض يذكر بأنه توفي يوم الأربعاء من صفر الخير عام ١٢٧٦هـ. (الصلابي،٢٠٠٦: ١٥٠).

ويبدو أن أحرى التواريخ التي يمكن اتخاذها تحديداً لوفاة السنوسي هي ٩ صفر ١٢٧٦هـ الموافق ٧ سبتمبر ١٨٥٩م؛ لأننا إذا رجعنا إلى بعض قواعد مقابلات التاريخ الهجري بالميلادي نجد أن ١محرم من عام ١٢٧٦هـ يوافق ٣١ يوليو ١٨٥٩م. وعليه فإن أقرب ما يوافق صفر من السنة الهجرية هو سبتمبر من العام ١٨٥٩م، وأول محرم من العام ١٢٧٧هـ، يوافق ١٩ يوليو من عام ١٨٦٠م. (العجيري، ١٩٦٧: ٢٤٧).

(٨) على أن الأشهب يجعل التاريخ الميلادي ١٨٦٠م).

الخاتمة

على الرغم من كثرة ما كتب عن الحركة السنوسية كدعوة إصلاحية ثم كحركة سياسية، إلا أن هناك الكثير من الثغرات التي ما تزال بحاجة إلى ضرورة البحث فيها ومحاولة إلقاء مزيد من الضوء عليها. ولعل رحلات مؤسس الحركة السنوسية محمد بن علي السنوسي بين بلدان المغرب العربي والحجاز كانت من أكبر الثغرات التي لم تأخذ حقها من العناية.

ومن خلال هذه الدراسة تبين أن السنوسي قام برحلتين فقط إلى الحجاز، بعد أن ترك بلاده الجزائر متوجهاً صوب المغرب الأقصى في حوالي عام ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م، فأقام فيها مدة تصل إلى قرابة الخمسة عشر عاماً، كما اتضح أيضاً من خلال تتبع تحركات السنوسي في بلاد المغرب العربي، أنه بدأ رحلته الأولى إلى المشرق في حدود عام ١٢٣٧هـ/١٨٢١م. وكان مروره بمصر في حدود عام ١٢٤٠هـ/١٨٢٥م، وهي نفس السنة التي وصل فيها إلى الحجاز في رحلته الأولى.

أقام السنوسي في الحجاز في رحلته الأولى مدة تصل إلى حدود خمسة عشر عاماً انتقل خلالها مع شيخه أحمد ابن إدريس إلى مدينة صبيا في حدود عام ١٢٥١هـ/ ١٨٣٥م. ثم عاد إلى الحجاز في حدود عام ١٢٥٣هـ/١٨٣٧م. وكانت مغادرته مكة بعد رحلته الأولى إلى الحجاز في حدود عام ١٢٥٥هـ/١٨٤٠م.

بعد أن رتب السنوسي أمور دعوته الإصلاحية في إقليم برقة وأقام الزاوية البيضاء والتي تعد أم الزوايا السنوسية في المغرب العربي، رأى أنه من الضروري العودة مرَّة أخرى إلى الحجاز. فقام بالرحلة الثانية في حدود عام ١٢٦٢هـ/١٨٤٦م، وأقام في الحجاز في هذه المرة ما يقرب من ثمان سنوات على أرجح الأقوال. ثم تركها وغادر إلى الأراضي الليبية في حدود عام ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٤م، فأنشأ بها العديد من الزوايا والتي من أهمها زاوية الجغبوب.

بقي السنوسي بعد ذلك في زاوية الجغبوب حتى وفاته في حدود عام ١٢٧٦هـ/١٨٥٩م. ولم يثبت أنه قام برحلة من الجزائر إلى الحجاز في عام ١٢٤٩هـ/ ١٨٣٣م، سبقت رحلتيه الأولى والثانية كما زعم البعض.

المراجع

الأشهب، محمد الطيب، *برقة العربية أمس واليوم*، *القاهرة*، د.ن، ١٩٤٧.

بعيو، مصطفى، *دراسات في التاريخ اللوبي*، الإسكندرية، مطبعة عابدين، ١٩٥٣.

حسنين، أحمد، *رحلة في صحراء ليبيا١٩٢٣*، أبو ظبي، دار السويدي للنشر والتوزيع؛ بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٤.

حميدة، علي عبد اللطيف، *المجتمع والدولة والاستعمار في ليبيا*، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٨.

الدجاني، أحمد صدقي، الحركة *السنوسية، نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر*، القاهرة، د.ن، ١٩٦٧.

الزاوي، الطاهر أحمد، *أعلام ليبيا*، بيروت، المدار الإسلامي، ٢٠٠٤.

زيادة، نقولا، *برقة الدولة العربية الثامنة*، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٥٠.

= = ، *ليبيا في العصور الحديثة*، القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٦٦.

ستودارد، لوثروب، *حاضر العالم الإسلامي*، بيروت، دار الفكر، ج١، ١٩٧١.

بن شايب، محمد، *مجموع فيه: من نوادر تراث المالكية*، بيروت، دار ابن حزم، ٢٠٠٣.

شكري، محمد فؤاد، *السنوسية دين ودولة*، اكسفورد، مركز الدراسات الليبية، ٢٠٠٥.

الصلابي، علي، *تاريخ الحركة السنوسية في أفريقيا*، بيروت، دار المعرفة، ٢٠٠٦.

عبد الرحيم، عبد الرحمن، *تاريخ العرب الحديث والمعاصر*، الدوحة، دار المتنبي للنشر والتوزيع، ١٩٨٢.

العجيري، صالح، *التقويم العام لتواريخ ٢٠٠٠ عام*، الكويت، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٦٧.

الناصري، أحمد بن خالد، *الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى*، الدار البيضاء، ج٨، ١٩٥٦.